بايارد دودج صديق العرب وكتابه
التربية الإسلامية في العصور الوسطى



د. / سامي خماس الصقار

تمهيـــد :



يعتبر بايارد دودج BAYARD DODGE من الشخصيات الأمريكية الفذة التي توثقت صلاتها بالبلاد العربية لفترة طويلة تزيد على نصف قرن . فعلاوة على إقامته المتواصلة في لبنان سنين عديدة ، فإن له مساهمات كثيرة في ميدان البحث والتأليف تتجلى فيما كتبه من مصنفات وبحوث يدور أكثرها حول النشاط الفكري الإسلامي والنظم الإسلامية ، ومنها كتابه «التربية الإسلامية في العصور الوسطى» الذي يدور حوله مقالنا هذا . إلا أن هذه الشخصية المهمة لم تلق من الإهتمام مايتناسب والدور الذي لعبته في هذه المنطقة من العالم ، ولذلك رأيت من واجبي أن أعرف بصاحبها على قدر المعلومات التي تيسر لي الوصول إليها ، كما أن أعرف بمصنفه آنف الذكر ، إذ يدخل ضمن اهتماماتي بتاريخ التعليم عند المسلمين ، ومن الله التوفيق .

أولاً ــ السيرة الشخصية :

ولد بايارد دوج في نيويورك يوم ١٨٨٨/٢/٥م (١٣٠٥هـ) لعائلة أمريكية غنية ، وتلقى تعليمه العالي في جامعة برنستون حيث حصل على درجة البكلوريوس في الآداب في سنة

١٩٠٩م - ١٣٢٧هـ ، كما حصل في سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م على درجة مماثلة في اللاهوت من جامعة كولومبيا . ثم حصل على درجة الماجستير في الآداب من الجامعة نفسها . وبعد ذلك توالى عليه عدد من الدرجات الفخرية ، ومنها درجة الدكتوراه في الحقوق من الكلية الشرقية ، وأخرى مثلها من جامعة ييل ، ثم درجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة برنستون ، وله علاوة على دراساته هذه نشاطات أخرى يمكن تلخيصها بما يأتي :

١ ـ علاقته بالبلاد العربية :

ترجع علاقة بايارد دوج بالبلاد العربية إلى سنة ١٣٣٩ ـ ١٣٤٠هـ ١٩٢٠ ـ ١٩٢١م ، عندما عين مديراً لإغاثة الشرق الأدنى لسورية وفلسطين في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، لإعانة سكان البلاد في التغلب على آثار الحرب ، إلا أن علاقته توثقت بصورة أعمق عندما عين في سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٣م أستاذاً في جامعة بيروت الأميركية ورئيساً لها في السنة نفسها ، وقد استمرت رئاسته لتلك الجامعة مع التدريس فيها حتى عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م ، أي مدة ربع قرن[1] . وفضلاً عن ذلك فإنه بسبب ماعرف عنه من حب لأعمال الخير والمشاريع الإنسانية ، كان يستعان به في مثل تلك الأعمال ، ولذلك اختارته عصبة الأمم عام ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م ليكون عضواً في اللجنة التي ألفتها العصبة لإعادة إسكان الآشوريين النازحين إلى سوريا ، وقد استمر في عضويتها حتى عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م . وفي عام ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م ، اثر النكبة الفلسطينية عينته منظمة الأمم المتحدة مستشاراً لهيئة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين، واستمر في ذلك المنصب خلال العام التالي . ثم تولى خلال المدة ١٣٧٢ ـ ١٣٧٣هـ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٣م) ادارة مؤتمر الثقافة الإسلامية في جامعة برنستون التي كان يحاضر فيها منذ عام ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥١م حتى عام ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م)، وتولى خلال الفترة ١٣٧٥ ـ ١٣٧٦هـ (١٩٥٥ ـ ١٩٥٦م) أيضاً منصب مستشار الشؤون الثقافية للشرق الأوسط في السفارة الأميركية في القاهرة . ثم تولى التدريس ـ بصفة أستاذ في الجامعة الأميركية في القاهرة خلال السنوات ١٣٧٦ ـ ١٣٧٩هـ (١٩٥٦ ـ ١٩٥٩م) علاوة على عضويته لمجلس ادارة معهد الشرق الأوسط في واشنطن ورئيساً له (انظر مقدمة كتابه عن الأزهر ، ص ١) . وفي سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م اختاره المجمع العلمي السوري عضواً فيه ، واستمر في عضويته حتى وفاته في سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٧١م . وتقديراً لجهوده في خدمة

البلاد العربية منحته الحكومة السورية في عام ١٣٦٨هـ ــ ١٩٤٨م وسام أمية، كما منحته كل من مصر ولبنان أوسمة رفيعة، فضلاً عن الأوسمة التي تلقاها من حكومات أخرى، ومنها فرنسا وإيران. وعندما توفي نعاه المجمع العلمي السوري على صفحات مجلته (مجلد ٤٧ ج ٣ ص ٧١٣) وأرسل رئيس المجمع برقية تعزية إلى رئاسة الجامعة الأميركية في بيروت تنوه بمآثره وتتضمن الأسف العميق على فقده.

وهكذا كانت صلة بايارد دودج وثيقة بالبلاد العربية طيلة حياته وحتى مماته.

٢ ــ نشاطه التعليمي:

يتجلى نشاطه التعليمي في توليه التدريس في جامعة بيروت الأميركية مدة ربع قرن كما أسلفنا ــ إلى جانب رئاسته لها، ثم توليه منصب أستاذ زائر في جامعة كولومبيا خلال المدة ١٣٦٩ ــ ١٣٧٤هـ (١٩٤٩ ــ ١٩٥٤م)، فضلاً عن عمله كمحاضر في جامعة برنستون لمدة ست سنوات، ثم أستاذاً للأدب العربي في تلك الجامعة في سنة ١٣٨١هـ ــ ١٩٦١م، علاوة على تدريسه في الجامعة الأميركية في القاهرة لمدة ثلاث سنوات، مما أشرنا إليه آنفاً (مجلة المجمع السوري، مجلد ٤٧ ج ٣ لشهر تموز ١٩٧٢م، ص ٧١٣ ــ ٧١٥ والزركلي «الاعلام» الطبعة الرابعة ــ بيروت ١٩٧٩، ج ٢ ص ٢٨٠ ونجيب العقيقي «المستشرقون» الطبعة الرابعة ــ القاهرة ١٩٨١م، ج ٣ ص ١٥١ وكتاب «Who's who 1972» 124 edition, Adams and Charles Black, London 1972, P. 882

ثانياً: مؤلفاته:

على الرغم من الأعمال الادارية الكثيرة التي تولاها بايارد دودج، وتنقلاته الواسعة بين الولايات المتحدة الأميركية والبلاد العربية، فإنه وجد من الوقت مايكفي للترجمة والتأليف وكتابة البحوث في مختلف المجلات العلمية. ولعل من المفيد أن ندرج هنا بعض البحوث التي وصل علمها إلينا، ثم نتبعها ــ إن شاء الله ــ بالمؤلفات، علماً بأن كل ماكتبه بايارد دودج كان باللغة الانجليزية:

أ ــ البحوث والمقالات:

١ ــ فهرس النشاط الثقافي في القرون الأربعة الأولى من الهجرة مماورد ذكره في «فهرست»

ابن النديم (مجلة الثقافة الإسلامية ، سنة ١٩٥٤م ـ ١٣٧٤هـ) .
٢ ـ حلقة الدراسات الإسلامية ـ مجلة العالم الإسلامي ـ سنة ١٩٥٨م ـ ١٣٧٨هـ .
٣ ـ الاسماعيليون والفاطميون ـ مجلة العالم الإسلامي ـ سنة ١٩٥٩م ـ ١٣٧٩هـ .
٤ ـ الفاطميون والشريعة ـ مجلة العالم الإسلامي ـ سنة ١٩٦٠م ـ ١٣٨٠هـ .
٥ ـ سمات الفلسفة الفاطمية ـ مجلة العالم الإسلامي ـ سنة ١٩٦٠م ـ ١٣٨٠هـ .
٦ ـ الفاطميون ونظام المراتب ـ مجلة العالم الإسلامي ـ سنة ١٩٦٠م ـ ١٣٨٠هـ .
٧ ـ الدين والقومية العربية ـ نشرة الإسلام والعلاقات الخارجية ـ سنة ١٩٦٥م ـ ١٣٨٥هـ .
٨ ـ صابئة حران ـ كتاب اليوبيل المئوي لجامعة بيروت الأمريكية ـ سنة ١٩٦٧م ـ ١٣٨٧هـ .
٩ ـ حياة ابن النديم ـ مجلة المجمع السوري ـ مجلد ٤٥ ج ٣ ـ تموز ١٩٦٧م ـ ١٣٨٧هـ ترجمه هذا المقال إلى اللغة العربية .
١٠ ـ كتاب «الفهرست» لأبي النديم ـ مجلة المجمع السوري ـ مجلد ٤٥ ج ٤ ـ تشرين الأول ١٩٧٠م ١٣٩٠هـ ـ ترجم هذا المقال إلى اللغة العربية .
١١ ـ المانوية والمانشوائية ـ نشرة دراسات العصر الوسيط في الشرق الأوسط ـ سنة ١٩٧٢م ـ ١٣٩٢هـ .
١٢ ـ التربية الأمريكية وجهود البعثات ـ نشرة أميركا والشرق الأوسط ـ سنة ١٩٧٢م ـ ١٣٩٢هـ .

ب ـ المصنفات :

صنف بايارد دوج عدداً من المؤلفات التي تدور حول التربية والتعليم عند المسلمين ، وهي باللغة الانجليزية، علاوة على ترجمة كتاب مهم جداً له علاقة بهذا الموضوع ، وهذه المؤلفات هي :

١ ـ كتاب «الأزهر» في عيده الألفى ، صدر في نيويورك بطبعتين متتاليتين في عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م وهو بعنوان «Al-Azhar, A Millienum of Muslim Learning» أي الأزهر وألف سنة من تاريخ التعليم عند المسلمين ، ويقع هذا الكتاب في ٢٤٠ صفحة من القطع

المتوسط. ثم أعيد طبعه في سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م في واشنطن في طبعة تذكارية أحياءً لذكرى المؤلف وذلك من قبل معهد الشرق الأوسط في واشنطن العاصمة (The Middle East Institute, Waschington D.C.) ذلك أن المؤتمر الذي عقده المعهد المذكور في أيلول من عام ١٩٧٣م ـ ١٣٩٣هـ تدارس سيرة المؤلف، وقد عدّ المشاركون في المؤتمر بايارد دوج من أكثر الأميركيين ارتباطاً بمنطقة الشرق الأوسط خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى (انظر مقدمة الكتاب، ص ١) بسبب العلاقات الوطيدة التي أرساها بين العرب والولايات المتحدة، خلال خدمته في الجامعة الأميركية ومابعدها. لذلك بادر المعهد إلى إعادة نشر كتابه هذا، فقد اعتبره من نوعية عالية جداً تكسب المعهد سمعة عالية ـ على حد قول رئيسه (المرجع السابق ص ١) ـ. ويتناول هذا الكتاب تاريخ الأزهر منذ تأسيسه في العهد الفاطمي حتى وقتنا الحاضر. وقد زوده مؤلفه بملاحق وفهارس وكشوف، منها ملحق بشيوخ الجامع الأزهر، وآخر عن الأروقة ونظامها، وثالث عن المعاهد الملحقة بالأزهر، ورابع عن برامج الدراسة فيه، فضلاً عن كشف المصادر وفهرس الاعلام الوارد ذكرهم في الكتاب، مع عدد من الصور.

٢ ـ التربية الإسلامية في العصور الوسطى ـ واشنطن، ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م (وهو موضوع بحثنا هذا).

٣ ـ تاريخ التربية في العالم العربي ـ نيويورك ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م (ولم أستطع الاطلاع عليه ولذا تعذر عليَّ وصفه).

إلا أن أهم الأعمال العلمية التي نهض بها بايارد دودج، هو تصديه لترجمة كتاب «الفهرست» لابن النديم، إلى اللغة الانجليزية. وقد تم نشره في لندن عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، في جزئين بلغت صفحاتها ١١٤٠ صفحة من القطع المتوسط، وهو مزود بكشوف وفهارس وملاحق عدة تساعد الباحث على الانتفاع بالكتاب، منها معجم بشرح معاني المصطلحات الواردة في الكتاب، وكشف بأسماء الاعلام الوارد ذكرهم فيه (استغرق ٢٠٤ صفحات) فضلاً عن الفهرس العام ومقدمة ضافية استغرقت ٢٠ صفحة. وقد تولى نشر الكتاب جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة في السلسلة المسماة «سجلات الحضارة» «Records of Civilisation» التي تصدرها الجامعة المذكورة، وكتب تقديماً له رئيس تحرير هذه السلسلة الأستاذ الدكتور جاكسون، أستاذ التاريخ في جامعة كولومبيا.

أما الجهد الذي اضطلع به بايارد دوج ، فهو تحقيق كتاب «الفهرست» للوصول إلى نص سليم ، ثم ترجمته إلى الانجليزية ، وذلك استجابة لطلب من هيئة تحرير سلسلة «سجل الحضارة» آنفة الذكر ، إذ وجدت في «الفهرست» صورة حقيقية لسجل الحضارة الإسلامية — على حد قول رئيسها الدكتور جاكسون (انظر تقديمه ص٩) — أو كما سماه دوج نفسه انه «موسوعة الثقافة الإسلامية» (انظر مقدمة ص ١٩) ووصفه بأنه يلقى الضوء على عناصر الثقافة الإسلامية التي تم نقلها بعدئذ إلى العالم الغربي ، هذا وقد تيسر لبايارد دوج الاطلاع على عدد من المخطوطات لم يتيسر لمن حقق كتاب «الفهرست» قبله الاطلاع عليها ، مما جعل تحقيقه للكتاب على درجة عالية من الدقة والاتقان . ولقد أطرى دوج علم المؤلف ابن النديم وأثنى على جهده الكبير ، واستشهد في هذا المضمار بالحديث النبوي الشريف القائل «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء»[٦] (انظر مقدمة ص ١٢) . وهكذا قدم دوج إلى العالم الغربي واحداً من عيون المؤلفات العربية ، ليعطيه الدليل على أن الحضارة الإسلامية قد بلغت شأواً بعيداً من التقدم ، إذ ينسى الكثيرون من أبناء الغرب فضل تلك الحضارة ، بل وينسون وجودها — على حد قوله في مقدمة كتابه عن التربية الإسلامية !!

ثالثاً: كتاب التربية الإسلامية في العصور الوسطى :

صدر هذا الكتاب باللغة الانجليزية بعنوان «Muslim Education in Medieval Times» في سنة ١٣٨٢هـ — ١٩٦٢م عن معهد الشرق الأوسط في واشنطن ، وهو المعهد الذي تولى نشر كتاب دوج الآخر عن الأزهر . يقع هذا الكتاب في ١٢٠ صفحة من القطع المتوسط وينقسم إلى قسمين وأربعة ملاحق يتعلق القسم الأول بالأنشطة والمعاهد والمؤسسات الثقافية ، وقد تناول المؤلف فيه الموضوعات الآتية :

١ — بدايات التعليم عند المسلمين (ص ١ — ٣) .
٢ — المدارس الأولية والابتدائية (ص ٣ — ٥) .
٣ — التعليم المهني (ص ٥ — ٧) .
٤ — التعليم العالي (ص ٧ — ١٣) .
٥ — استخدام الورق (ص ١٤ — ١٦) .
٦ — الترجمة والبحث (ص ١٦ — ١٨) .

٧ ـ دعم الدولة للتعليم (ص١٨ ـ ١٩) .
٨ ـ الكليات ـ المدارس (ص ١٩ ـ ٢٤) .
٩ ـ الأربطة الصوفية (ص ٢٤) .
١٠ ـ المسجد ـ المدرسة (ص ٢٤ ـ ٢٩) .
١١ ـ منهاج التعليم (ص ٢٩ ـ ٣٠) .

وفي القسم الثاني يتناول المؤلف تطور مقررات التعليم ومناهجه ، وهو يتضمن المباحث الآتية :

١ ـ اللغة (ص ٣١ ـ ٣٤) .
٢ ـ النحو والصرف (ص ٣٤ ـ ٣٥) .
٣ ـ البلاغة (ص ٣٦) .
٤ ـ الأدب (ص ٣٧ ـ ٤٣) .
٥ ـ التفسير (ص ٤٣ ـ ٤٩) .
٦ ـ القراءات (ص ٥٠ ـ ٥١) .
٧ ـ الحديث (ص ٥١ ـ ٦٠) .
٨ ـ الفقه (ص ٦٠ ـ ٧٤) .
٩ ـ علم الكلام والتصوف (ص ٧٤ ـ ٨٨) .

ثم هناك الخلاصة (ص ٨٨ ـ ٩٠) وتتبعها الملاحق ، وهي :

١ ـ الملحق الأول: المصطلحات التي أخذ بها المؤلف (ص ٩١) .

٢ ـ الملحق الثاني: أبواب كتاب «صحيح البخاري» وذلك لتمثيل ما تتضمنه كتب الحديث من موضوعات (ص ٩٢ ـ ٩٦) .

٣ ـ الملحق الثالث: خلاصة محتويات «كتاب الأم» للإمام الشافعي ، وذلك ليمثل ماتحتويه كتب الفقه الإسلامي من موضوعات (ص ٩٧ ـ ١٠٢) .

٤ ـ الملحق الرابع : خلاصة مبادىء عقيدة الإمام الأشعري (ص ١٠٣ ـ ١٠٥)، وهي تمثل مايتناوله علم الكلام من مبادىء . ويعقب هذه الملاحق كشف المصادر والمراجع

(ص ١٠٧ ــ ١١٣) ، ثم الفهارس (ص ١١٥ ــ ١١٩) وهي للاعلام الوارد ذكرهم في ثنايا الكتاب .

وللإلمام بمحتويات هذا الكتاب بصورة واضحة ، وللتعرف على أسلوب المؤلف ومجمل آرائه ، رأيت من الضروري أن ألخص ما ورد فيه لفائدة القراء الذين لايحسنون اللغة الانجليزية ، وكي أوفر عليهم عناء قراءة الكتاب كله . وأبدأ بمقدمة الكتاب وهي مقدمة موجزة أوضح فيها المؤلف هدفه من تأليف هذا الكتاب ، إذ قال بأنه لاحظ وجود كثيرين من دارسي تاريخ التعليم في العصور الوسطى ، ينسون ــ في الغالب ــ وجود ثقافة مزدهرة في تلك العصور هي الثقافة العربية الإسلامية التي غطت المنطقة الواسعة من الأندلس غرباً حتى أقاصي بلاد الأفغان شرقاً[٣] ، تلك الثقافة التي قدمت الكثير من الانجازات التي كان لها دورها في احياء النهضة الأوربية . ولذا رأى من واجبه أن يصنف كتاباً موجزاً باللغة الانجليزية عن تاريخ التربية عند المسلمين ليطلع عليه من لايحسن العربية ، ولكي يتسنى له اعطاء الثقافة الإسلامية ومعاهد التعليم الإسلامي حقها من التقدير .

١ ــ بدايات التعليم :

وبعد هذه المقدمة الموجزة ، دخل المؤلف في صلب موضوعه ، فعند حديثه عن بدايات التعليم الإسلامي ، تناول النشاط الثقافي ومؤسساته ، فقال ، لم يكن في العهد الجاهلي أي نظام تربوي منظم ، وكان معظم العرب آنذاك أميين ، ولكن ذلك لم يمنع من وجود ثقافة أدبية كالشعر والامثال ، وهي تعتمد على الحفظ والرواية الشفوية ، إلا أن اللهجات كانت متعددة إلى أن وحدها القرآن الكريم الذي أصبح الأساس لحياة المسلمين الدينية والأدبية والتشريعية ، كما أنه هو الأساس للتربية الإسلامية ، إذ ليس للمسلم أن يتعلم شيئاً إلا إذا كان له سند من القرآن الكريم ، ولذا يمكن وصفها بأنها تربية قرآنية . ولقد كان الخلفاء يشجعون العلماء على تدريس القرآن في المساجد ، مما أدى إلى نشر المعرفة والتعليم ، وبمرور الزمن ظهرت طوائف عديدة من المعلمين ، كان منهم القراء والقصاص ورواة الحديث ورواة الشعر والأمثال ورواة سيرة الرسول ﷺ وأخبار الصحابة رضي الله عنهم . وكان هناك المؤدب الذي يتولى تعليم الأطفال لكي يهيئهم للحياة الجديدة ، سواء كانوا من الفقراء الذين يدرسون في المساجد، أو الأغنياء الذين لهم معلمون خاصون يدرسونهم في منازلهم . وهذا الإقبال على التعليم شجع بدوره المعلمين لكي ينشئوا مدارسهم الخاصة التي تهتم بتعليم القرآن الكريم

(أي الكتاتيب) بالدرجة الأولى ، ثم الكتابة ورواية بعض الشعر . هكذا كانت بداية التعليم عند المسلمين (اعتمد المؤلف في كتابه هذه الفقرة على فتوح البلدان للبلاذري ــ ترجمة فيليب حتى ج ٢ ص ٢٧٠ ــ ٢٧٤ و«فهرست» ابن النديم ، طبعة أوربا ص ٥، ٧، ٨، ٢٥ ــ ٢٨ ومقال ترتون عن التعليم ، وآدم ميز «تاريخ الحضارة الإسلامية» باللغة الانجليزية ص ٣٢٦ ، ٣٤٤) .

٢ ــ التعليم الابتدائي :

ثم انتقل المؤلف إلى الحديث عن المدارس الأولية والابتدائية ، فقال انه في أواسط القرن الثامن الميلادي ظهرت إلى الوجود المدارس الأولية واتسع انتشارها ، فكان بعضها في البيوت والحوانيت ، وأغلبها في المساجد . وكان تلامذتها تتراوح أعمارهم بين السادسة والعاشرة ، وهدفها الأول هو تحفيظ القرآن الكريم وقراءة شيء من الشعر والأمثال وتعلم الخط والحساب وكيفية الوضوء وأداء الصلاة . أما إذا جاوز التلميذ العاشرة فإنه يدرس مواضيع مكملة كالنحو والبلاغة والأدب والسيرة . وربما خصصت الفترة الصباحية للقراءة ، وفترة مابعد الظهر للكتابة ، وكلاهما يتعلق بالقرآن الكريم . أما يوم الخميس فكان مخصصاً لمراجعة ماكتبه التلاميذ خلال الأسبوع وتصحيحه . وتعطل الدراسة في أيام الجمعة .

هذا ويدفع التلاميذ بعض الأجور الزهيدة لمعلميهم الذين كان يسمح لهم بمعاقبة تلامذتهم إذا ماأذنبوا ــ بالضرب . وقد اشترط في المعلم أن يكون متزوجاً وذا خلق قويم ، وكان في الغالب في متوسط العمر . وكان المعلم في بعض المدارس يتخصص بتدريس مادة معينة كالقرآن أو اللغة العربية أو الحساب . والتعليم في الأساس عمل ديني ويتقرب به إلى الله ولا يؤخذ عليه أجر أصلاً ، إلا أن تطور التعليم واختلاف الظروف أديا إلى تقاضي بعض الأجور . كما أسلفنا ــ أو الهدايا الزهيدة . هذا وقد كان المعلم يدرس في العادة أربعين تلميذاً (رجع المؤلف في كتابة هذه الفقرة إلى «آداب المعلمين» لابن سحنون و«تراث العرب التربوي» لخليل طوطح ص ٦٣ و«تاريخ التربية الإسلامية» لأحمد شلبي ص ١٥ و«التربية في الإسلام» للاهواني ص ١٤٦ ، ومقال ترتون عن التعليم) .

٣ ــ التدريب المهني :

أما عن التدريب المهني ، فقد ذكر المؤلف أنه بعد انتهاء الدراسة الابتدائية ، كان أكثر

الأولاد يبدأون العمل مع آبائهم في الزراعة والصناعة اللتين تعتمدان على العمل اليدوي ، ولاسيما الحرف التي تمارس في الحوانيت التي تزخر بها أسواق المدن الإسلامية ، وكان أصحابها ينتظمون في نقابات لها شيوخها ، وهي تتولى تنظيم علاقات أعضائها بالدولة ، وتحدد الرسوم ، كما تتولى العناية بالمريض والفقير من أبناء المهنة ، وتقيم الاحتفالات في المواسم وتحدد أجور الصناع وأسعار المصنوعات وما إلى ذلك . وكان في كل حانوت عدد من الصناع وإلى جانبهم أولاد صغار يتعلمون المهنة ويساعدون معلميهم في صنع مايريدون صنعه ، وهم في الغالب من أبناء أصحاب تلك المهن الذين أتموا تعليمهم الابتدائي . وفضلاً عن ذلك فهناك صناعات تمارس خارج الأسواق ، كاستخراج الزيوت وصناعة الآجر ومواد البناء والصابون ، وهنا أيضاً كان بعض الأولاد يشاركون في العمل وتعلم الصنعة .

ولهذا النظام فوائد جمة ، إذ يعطي الأولاد فرصة تعلم الحرف مجاناً ، ويعوّدهم على الانضباط والتعرف على الطبيعة الإنسانية . أما البنات فكن يتعلمن الحرف المنزلية في البيوت من أمهاتهن ، وقليل منهن من يحصلن على التعليم بواسطة معلمين خصوصيين إلا أن هناك صفوفاً خاصة أنشئت لتعليم الجواري اللاتي كن يتعلمن القراءة والكتابة وانشاد الشعر والغناء والرقص والموسيقى وآداب المجالسة والمحاورة . وكان البعض منهن يرتقين إلى مراكز عالية في المجتمع فيصبحن زوجات للخلفاء وأمهات لبعض هؤلاء ، وقد برز منهن عدد من المثقفات العارفات بالشعر والأدب والنحو ، والسياسة أحياناً ، وما شجرة الدر التي حكمت مصرعنا ببعيد (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «فهرست» ابن النديم ص ٥٧ و«معجم الأدباء» لياقوت و«وفيات الأعيان» لابن خلكان ــ ترجمة بكر بن محمد المازني ــ و«طبقات النحويين» للزبيدي ص ٩٢ و«بغية الوعاة» للسيوطي ، ص ٢٠٢) .

٤ ــ التعليم العالي :

أما فيما يتعلق بالدراسة العليا ، فيقول (المؤلف) انه مع تطور المجتمع الإسلامي نشأت الحاجة إلى تعليم أعلى يتناسب مع الوضع الجديد ويرضي طموح الطلبة الذي يتوقون لتسلم مناصب عليا أو الحصول على ايراد محترم ، أو يرضون ــ على الأقل ــ مافي نفوسهم من طموح . وبالنظر لعدم وجود تعليم ثانوي ، كان على الطالب أن يدرس لدى مدرس مستقل يتخذ مجلسه عادة في أحد المساجد . وقد تنوعت مجالس المساجد هذه ، فهناك ثلاثة أنواع

منها ، أولها المجالس العامة التي يحضرها عدد كبير من الطلبة ، ويملي فيها الشيخ مايريد املاءه عليهم ، ويستعين عادة بشخص يسمى «المستملي» ولايسمح في هذا المجلس بالمناقشة وطرح الأسئلة . والنوع الثاني يسمى «الحلقة» التي يحضرها عدد قليل من الطلبة ، ويسمح فيها بالمحاورة والمناقشة ، ويشيع خلالها جوي أبوي . وكان الطلبة يكتبون فيها مذكراتهم على مايلقيه شيخهم ، وربما واصلوا الدراسة في منزل الأستاذ بعدئذ ، وفي ذلك من الفوائد مالا يحصى . والنوع الثالث وهو «الملازمة» ويكون الطالب من هذا النوع «غلاماً» لأستاذه الذي يلازمه ويأخذ عنه علومه . والطالب ــ في الغالب ــ شخص فقير يكسب قوته بالعمل أو بنسخ الكتب أو بخدمة أستاذه الذي يعتبره كولده فينسب إليه . وبهذه الصورة يكون من أحسن المتعلمين (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» لابن النديم ص ٦١ ــ ٦٢ ومجلة Islamic Culture سنة ١٩٤٤ ص ٤١٩ ــ ٤٢٢) .

والجدير بالذكر أن كثيرين من الطلاب قد قضوا حياتهم مع أستاذ واحد ، وربما تزوجوا من بنات أساتذتهم وخلفوهم في مجالسهم ، وربما تتلمذ الطالب على عدد من الشيوخ ، كل واحد منهم في مادة معينة . هذا ويقوم الطالب عادة بمساعدة أستاذه في التصنيف والنسخ والمقابلة بين النسخ وتصحيحها . ولقد صنف بعض العلماء ــ كالزرنوجي ــ رسائل تربوية احتوت على مبادىء جيدة تؤكد أهمية الالتزام بالتقوى والزهد وتبين فوائد الحفظ في التربية الإسلامية . ولعل من المفيد التنبيه إلى أن مباحثات الطلبة والأساتذة كانت تجرى في المساجد كما تجرى أحياناً في الطرق العامة والأسواق التي كان بعضها ــ كسوق البصرة مثلاً ــ مثابة لاجتماع العلماء بأهل البادية ، فيأخذون عنهم اللغة (ولاشك أن المؤلف يقصد به «المربد») ، كما كان الشعراء ينشدون فيه مانظموا من أشعار . وكانت دواوين الدولة تتيح فرص العمل لمن يتعلم فن الكتابة ولاسيما من أبناء الموظفين . ومن العلماء البارزين في هذا المجال الجاحظ أكبر مثقفي عصره ، كان الجاحظ يمارس العمل ويدرس مختلف العلوم قديمها وحديثها ، ويلتقي بالعلماء في كل فن ، حتى برع في مختلف العلوم دون أن يلتزم بمنهج معين ، إذ لم يكن التعليم العالي قد انتظم في عصره ، وكان الطالب هو العميد وهو المسجل وهو المرشد لنفسه ، ولايطلب منه أي اجراء للقبول ولاشهادات، ومع ذلك فقد كانت هناك صلة حميمة بين الطالب وشيخه ، وهذه الصلة تعد من أروع مظاهر التربية الإسلامية . هذا وقد كان الطالب يعتمد على ذاكرته بالدرجة الأولى ، وكانت ذاكرة الطلاب تستوعب الكثير ، بل

تستوعب كتباً كاملة أحياناً . ثم ان اتساع رقعة العالم الإسلامي أدى إلى تنوع الثقافات العلمية بين المسلمين ، إذ كان الطلبة والعلماء يقومون برحلات واسعة للقاء المشايخ والانتفاع بما عندهم (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص ٥٧ و٦١ ، ٦٣ ، ٦٩ والزرنوجي «تعليم المتعلم» الترجمة الانكليزية ص ٢٨ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٦٧ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٥ و٣ ص ٢٤ و«الفهرست» مخطوطة دبلن ورقة ١١٢ وميز «الحضارة الإسلامية» النسخة الانجليزية ، ص ١٩١).

هذا وكثيراً ماكانت تُجمع محاضرات الشيوخ وأماليهم ، فتصبح كتاباً ويكون للطلبة في نسخه ونشره دور كبير . ومثل هؤلاء الطلاب يصبحون عادة ــ بعد أن يتموا التحصيل ــ بدورهم أساتذة . أما مواعيد المحاضرات ، فقد كانت تبدأ بعد صلاة الفجر وتستمر حتى المساء ولا تتوقف إلا خلال أوقات الصلاة وتناول الطعام . وكثيراً ماكانت تعقد الدروس بعد صلاة المغرب ، ففي الجامع العتيق بمصر (أي جامع عمرو بن العاص) كانت تعقد أكثر من ١٠٠ حلقة لدراسة القرآن الكريم والفقه والأدب والكلام . وكان الطالب حراً في اختيار الأستاذ والموضوع والوقت الملائم ، وكان بوسعه أن يقرر أخذ مادة واحدة أو أكثر حسب طاقته . وعلى أي حال فقد نشأ عن انتشار التعليم العالي ظهور طبقة كبيرة من العلماء تتمتع بمكانة مرموقة ــ وان لم تكن غنية ــ في المجتمع الإسلامي (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص ٦٥ ــ ٦٧ ,٦٩ ,٧٤ ,وابن خلكان ، الترجمة الانكليزية ص ٨٣٨ والأصل العربي ج ٢ ص ٣٦٥ ومقال ترتون ص ٦١ ــ ٦٥ وأحمد شلبي ، ص ١٥٣ ، ١٥٤) .

٥ ــ استخدام الورق :

كان استعمال الورق أهم حدث في تاريخ التعليم ، لأن مواد الكتابة السابقة على اختراع الورق كانت قليلة يصعب الحصول عليها ، فضلاً عن عدم ملاءمتها لتطور التعليم . ولذا كانت معرفة المسلمين بصناعة الورق ــ في القرن الثاني الهجري ــ الثامن الميلادي ــ عاملاً مهماً في تقدم التعليم . وقد أدى انتشار الورق إلى ظهور الوراقين الذين كانوا يصنعون الورق وينسخون الكتب ويبيعونها إلى الناس . وكان العلماء يقصدون حوانيتهم فيلتقي بعضهم ببعض ، وتقع بينهم بعض المباحث والمذاكرات ، بل كان بعض الوراقين أنفسهم من أرباب العلم ، كابن النديم مصنف كتاب «الفهرست» ، وكان دورهم كبيراً في نشر المعرفة . كانت

المخطوطات التي يصنعها الوراقون على شكل كتاب ، إلا أنها كانت غالية الثمن لاسيما بالنسبة للطلاب ، مما حمل الأساتذة على املاء محاضراتهم على الطلاب ليستغنوا بها عن الكتب. هذا وقد صارت مهنة نسخ الكتب من المهن المهمة التي مارسها عدد من كبار العلماء ، مما يسر وجود الكتب في الأسواق ، وهذا فتح الباب لانشاء المكتبات التي صار الحكام والأعيان ينشئونها في القصور والمساجد وغيرها . ومن أهم المكتبات الإسلامية ، «بيت الحكمة» في بغداد ومكتبة قصر الخليفة العباسي ، و«دار الحكمة» الفاطمية ومكتبة الجامع الأزهر في مصر ومكتبة جامع القرويين في فاس ، فضلاً عن مكتبات الأندلس . كما أن كثيراً من الأدباء استطاعوا انشاء مكتباتهم الخاصة . ومما يذكر أن الخليفة العباسي الواثق ، قد ترك بعد وفاته ٦٠٠ صندوق ملأى بالكتب ، إذ كان له غلامان ينسخان له الكتب ليلاً ونهاراً ، علاوة على الكتب التي كان يشتريها !! وكان هناك «خزان» للكتب وظيفتهم العناية بالمكتبات ، ومما تجدر ملاحظته أن العلماء المسلمين ــ على الرغم من الصعوبات المادية التي واجهتهم ــ قد تمكنوا من تصنيف أعداد ضخمة من الكتب ، فالكندي مثلاً صنف حوالي ٢٠٠ مؤلف ، والمفسر الفخر الرازي له حوالي ١٤٠ مصنفاً وهكذا ، مما يشهد على طول باعهم في التأليف (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى ميز ، النسخة الانكليزية ص ١٧٢ ــ ١٧٧ ، ٤٦٧ ــ ٤٦٩ ، و«الفهرست» ص ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ٢٥٥ ــ ٢٦٠ ، ٢٩٩ ــ ٣٠٠) .

٦ ــ الترجمة والبحث :

كانت الدروس تتركز في البداية على علوم القرآن الكريم والحديث واللغة العربية ، ولكن حدث في عهد الخليفة المنصور ان استدعي أحد الأطباء من جنديسابور إلى بغداد للاستشارة الطبية ، فحبب إليه المنصور الإقامة في بغداد ، مما مهد الطريق لغيره من علماء العلوم اليونانية للتوارد على العاصمة ، وكان وجودهم فيها مثار اهتمام المسلمين بتلك العلوم . ثم بدأت الترجمة ، فترجمت بعض الرسائل الفلكية الهندية ، وبدأ استخدام الأرقام وآلات الاصطرلاب. وفي عهد الرشيد نشطت حركة الترجمة وتم انشاء مستشفى في بغداد . وفي سنة ٢١٥هـ ــ ٨٣٠م أنشأ المأمون معهداً للبحوث سماه «بيت الحكمة» وقد ضم مكتبة عظيمة ومركزاً للأبحاث الفلكية وللترجمة وجمع الكتب القديمة التي صارت تترجم إلى اللغة العربية مما يسرها لاطلاع الدارسين . وهكذا بدأ المسلمون بحوثهم في الفلك والطب والصيدلة ،

وأخذوا يدرسون الفلسفة اليونانية والمنطق وزاد اهتمامهم بتلك العلوم ، حتى أن بعض الأفراد ـ مثل بني شاكر في بغداد وابن سوار في البصرة ـ صاروا ينشئون معاهدهم الخاصة للأبحاث ، وأخذ الخلفاء والحكام يعقدون مجالس العلم والمناظرة في قصورهم ، ويجيزون العلماء بسخاء . وقبل نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ، أنشأ ابن طولون مستشفاه في مصر ، وسار على منواله الفاطميون فيها بعد فأنشأوا الأزهر وأمدوه بالمال ليكون مركزاً علمياً تدرس فيه مختلف العلوم ، حتى أن الفلسفة والفلك قد تم تدريسها فيه لمدة طويلة علاوة على العلوم الإسلامية والعربية . كذلك جمع الفاطميون الكتب وشجعوا على ممارسة البحوث في قصورهم ، فأنشأ الحاكم لهذا الغرض «دار الحكمة» (علاوة على وجود دار العلم في القاهرة) ، وفيها مكتبة ضخمة وكان العلماء يتوافدون عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وكانت تزود روادها بأدوات الكتابة مجاناً ، كما كان بها جناح خاص للنساء . وكان كل رواق فيها يختص بعلم معين ، حيث يتوفر وجود العلماء الذين كانوا يحاضرون كل في علمه . وفضلاً عن ذلك بنى الخليفة الحاكم مرصداً فكلياً اشتغل فيه كبار الفلكيين كابن يونس والحسن بن الهيثم . هذا ويزخر كتاب «الفهرست» لابن النديم بذكر العلماء الذين ترجموا الكتب القديمة وأولئك الذين مارسوا التأليف خلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الإسلامي ، مما يدل على عظم الانجازات التي حققوها . وفضلاً عن ذلك فقد اتسع نطاق العلم فشمل الشمال الافريقي والأندلس علاوة على الأقاليم الإسلامية الأخرى ، إلا أن الحروب الصليبية والغزو المغولي والتوسع النصراني في الأندلس ، هذه كلها أثرت في تضييق النشاط العلمي الإسلامي وفي حمل المسلمين على اللجوء إلى الزهد والتصوف (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص٢٤٣ و ٢٧١ و٢٩٦ و«ديوان المؤيد في الدين» ص ٥٧٠ و«تاريخ العرب» لفليب حتى ، النسخة الانجليزية لسنة ١٩٤٩ ص ٣٠٦ ـ ٣١٦ و ٣٦٣ ـ ٣٨٧ وطوطح ص ٦ و٧) .

٧ ـ دعم الدولة للتعليم :

كان للدولة الإسلامية دور كبير في دعم التعليم ومساندة النشاط العلمي والأدبي ، ومع ذلك فإن أكثر العلماء كانوا يعتمدون على أنفسهم في كسب أرزاقهم ، فيعملون في نسخ الكتب والتعليم والتجارة ، وعمل بعضهم في القضاء أو منادمة الحكام أو كتاباً ، فالكسائي مثلاً كان

يؤدب أولاد الرشيد ، وأبو العميثل كان يؤدب أبناء عبدالله بن طاهر، وأبوعلي الفارسي ، النحوي المشهور ، كان موضع رعاية سيف الدولة الحمداني ، ثم من قبل عضد الدولة البويهي إلا أن علماء آخرين فضلوا البقاء على الفقر كالأخفش الصغير ، لكن الأطباء من أمثال الرازي وابن سينا كانوا يحظون بكرم الحكام وهباتهم ، وكان المؤلفون يحصلون على جوائز قيمة مقابل مصنفاتهم . كما أن المشتغلين في «بيت الحكمة» في بغداد و«دار الحكمة» في القاهرة ، كانت لهم جرايات سخية . ثم استجدت مؤسسات تعليمية جديدة في القرن الحادي عشر الميلادي الخامس الهجري حظيت بدعم الحكام المسلمين كالمدارس التي نالت الدعم المالي هي والربط والمكتبات والمستشفيات وملاجىء الأيتام ، فضلاً عن المساجد ، مما هيأ الفرص للعلماء لممارسة البحث والتدريس والتصنيف . وبادر موظفو الدولة والأعيان إلى تقليد حكامهم فمنحوا تلك المؤسسات دعمهم ومساندتهم ، مما أدى إلى ازدهار الثقافة الإسلامية خلال العصور الوسطى ، ولاسيما بعد انشاء المدارس (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص ٦٠ وإلى ابن خلكان ، النسخة الانجليزية ، ج ١ ص ٣٧٩، ٤٤٠، وج ٢ ص ٥٥، ١٢٣، ٢٤٤، وج ٣ ص ٣١١).

٨ ــ الكليات ــ المدارس :

بالنظر لعدم ملائمة المساجد لعقد مناقشات حادة قد تعكر هدوءها، إذ هي مخصصة للعبادة بالدرجة الأولى ، عمد المسلمون إلى انشاء المدارس ، ولكن دون التخلي عن التعليم في المساجد . ورغم أن اسم المدرسة كان معروفاً منذ القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري ، فإن أول مدرسة حقيقية أسست في أوائل القرن الحادي عشر/ الخامس الهجري ثم تبعتها «نظامية بغداد» في سنة ٤٥٩هـ ــ ١٠٦٧م وهي التي صارت نموذجاً يحتذى في إنشاء المدارس . وقد حوت هذه المدرسة قاعات للتدريس ومكتبة ومسجداً وغرفاً لسكنى الطلبة والمدرسين ومطبخاً وما إلى ذلك من المرافق الضرورية . وقد خصص الوزير نظام الملك الأموال اللازمة لدفع مرتبات محترمة إلى المدرسين وتأمين السكن والطعام والكساء لهم وللطلبة . وارتفعت مكانة الأساتذة إلى درجة عالية ، وصار الحكام يستعينون بهم في بعض المهام الخطيرة كايفادهم في السفارات ، وكان يعين للمدرسة رئيس شرف من بين كبار الموظفين ، ينوب عنه نائب لتسيير شؤون المدرسة . وكان لكل مدرس معيد أو أكثر يساعده في محاضراته ، كما كان هناك عدد من الاداريين والخدم فضلاً عن وجود إمام ومسجد . وكانت

مهمة المعيد إعادة مايمليه الأستاذ وتصحيح مايكتبه الطلبة عنه والإجابة على أسئلتهم ، كما ينوب عن الأستاذ في حالة غيابه . هذا ولم يكن هناك جدول منظم للمحاضرات ، والطالب حر في اختيار المواد التي يدرسها ، كما أنه حر في مواصلة الحضور إلى أي وقت شاء ، وكان الطلاب يدرسون علاوة على العلوم الدينية العلوم اللغوية والبلاغة والمنطق كوسائل لفهم العلوم الأساسية . وكان غالبية الأساتذة من كبار الشيوخ المعروفين بالاستقامة والاخلاص فضلاً عن الزهد والعلم والنشاط الكبير مع الاهتمام التام بطلا بهم (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى : «حسن المحاضرة» للسيوطي ، ج ٢ ص ١٥٦ وكتاب أسعد طلس عن «المدرسة النظامية») .

هذا وقد زار ابن جبير المدرسة النظامية ببغداد في سنة ٥٨٠هـ ــ ١١٨٤م ، وأعجب بمحاضراتها وبقدرة المحاضرين على أدائها وعلى الإجابة على الأسئلة التي توجه إليهم . ولم يقتصر تأسيس المدارس النظامية على بغداد ، بل أسس نظام الملك مدارس مماثلة في البصرة والموصل وأصفهان ونيسابور وبلخ وهراة وغيرها . وبعده قام صلاح الدين الأيوبي بإنشاء خمس مدارس في القاهرة لتحل محل المعاهد الفاطمية ، وتبعه أهل بيته في ذلك ، ثم المماليك من بعدهم حتى بلغ عدد المدارس في القاهرة في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري (١١٥) مدرسة . ولاتزال مدرسة السلطان حسن التي أنشئت في عام ٧٦١هـ ــ ١٣٥٩م قائمة ، ولكنها حولت إلى مسجد للصلاة فقط ، وهي تعطي فكرة عن شكل المدارس ، ففيها أواوين المحاضرات وغرف السكنى . وخصصت هذه المدرسة لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، إلا أن كثيراً من المدارس كانت لمذهب واحد كالنظامية ، أو لمذهبين وهي قليلة . وفي نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري وجدت في افريقية الشمالية عشر مدارس وكثير غيرها في مشرق العالم الإسلامي ، حتى ليقدر عدد المدارس الإسلامية في العصور الوسطى بـ ٧٣ مدرسة في دمشق و٤١ مدرسة في القدس و٤٠ مدرسة في بغداد و١٤ مدرسة في حلب و١٣ مدرسة في طرابلس و٩ مدارس في الموصل و٧٤ مدرسة في القاهرة[٤] ، علاوة على كثير غيرها في مختلف المدن الإسلامية . (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: رحلة ابن جبير ، الترجمة الانكليزية ص ٢٢٨ ، ٢٣٨ و«حسن المحاضرة» للسيوطي ، ج ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ وابن خلكان ، الترجمة الانجليزية ، ج ٣ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وج ٤ ص ٥٧٤ و«خطط»المقريزى ، قسم ٢ ص ٣٤٠ وقسم ٤ ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦،

٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢١ وكرزويل «العمارة الإسلامية» ج ٢ ص ١٠٤ ، ١٣٤ ، ١٩٥ ــ ١٩٨ ، ٢٣٤ ــ ٢٤٨ ، ٢٥٣ نيقولا زيادة «السنوسية» في الموسوعة الإسلامية ، وطوطح ص ٢٣) .

أما المدرسة التي أسست على شكل جامعة فهي المدرسة المستنصرية التي أنشئت في بغداد في سنة ٦٣٢هـ ــ ١٢٣٤م ، إذ بنيت على شاطىء دجلة بشكل بناية ضخمة ذات طابقين فيها غرف لسكنى الأساتذة والطلاب ، وأواوين للمحاضرات لعلماء المذاهب الأربعة ، فضلاً عن المسجد والمطبخ والحمام والمكتبة وغيرها من المرافق ، ثم ضم إليها مستشفى ومستوصف وقاعات لتدريس الطب ، وكانت لها ساعة عجيبة . أما طلابها فقد كانوا يتلقون المرتبات والطعام والعلاج الطبي إلى جانب التعليم المجاني لمختلف العلوم الدينية والعربية والحساب والفرائض والمساحة والتاريخ والصحة والحيوان والنبات والعلوم الطبيعية ، فضلاً عن تعليم الطب لفئة منهم . وكان المحاضرون يلبسون السواد ويجلسون على منصة خاصة ، ولكل منهم معيدان . هذا وقد كان للمدرسة مكتبة لها خازن ومساعدون . وعلاوة على ذلك أنشىء بها مكتب لتعليم القرآن الكريم (يقصد دار القرآن) لتعليم عدد من الأيتام . هذا وبناية المستنصرية لازالت قائمة (كرزويل المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٤ ــ ١٢٧ و«السلوك» للمقريزي ، ج ١ ص ٣١٢ ، وأسعد طلس ، ص ٤٤ ، ٥٣ ــ ٥٥ وناجي معروف «المدرسة المستنصرية» سنة ١٩٣٥ مطبوعات نادي المثنى) .

٩ ــ الأربطة الصوفية :

كانت الصوفية من الجماعات الإسلامية المهمة التي سلكت طريق الزهد . وقد نظم هؤلاء أنفسهم في طرق معروفة ، وتجمعوا في الربط حيث يتلون القرآن الكريم ويرددون الأدعية . وكان لهؤلاء دور في مسيرة التعليم ، بل أن بعض الطرق كانت لها دروس خاصة كما كانت تهيء المساكن لمن يدرسون في أماكن أخرى . وحتى اليوم يمكن القول بأن الصوفية تقوم بدور تعليمي في الأماكن الخالية من مؤسسات التعليم ولاسيما في الصحاري الافريقية النائية (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى مقال نيقولا زيادة عن «السنوسية» في «الموسوعة الإسلامية» .

١٠ ــ المسجد ــ المدرسة :

يمكن القول بأنه حتى بعد تأسيس المدارس ، استمر المسجد يؤدي مهمته في التعليم

العالي ، وكان الطلاب من مختلف الأعمار يقصدون المساجد ، وكانوا يتلقون الاعانات من أرباب الأوقاف ، وساعدهم على ذلك مجانية التعليم وعدم وجود شروط خاصة للانخراط فيه . وكذلك المدرسون لم يكن هناك مايمنعهم من عقد مجالس الدرس إذا ماآنسوا في أنفسهم القدرة على التدريس ، واعترف لهم بها المشايخ . والطريف أن بعض المدرسين كان يعلّم ويتعلم في آن واحد ، مما يجعل التمييز بين الطلبة وهيئة التدريس عسيراً أحياناً !! هذا وقد أخذ الأساتذة يمنحون طلبتهم اجازات ، وهي شهادات شخصية غير صادرة عن مؤسسة معينة ، تفيد بأن حاملها قد أنهى دروسه وصار بوسعه أن يتصدى للتعليم . وكان الطالب يحاول جمع عدد من هذه الإجازات لعلها تساعده في الحصول على عمل في التدريس أو القضاء أو الادارة . أما مواد الدراسة فقد كانت متقاربة ــ من حيث المستوى والمضمون ــ في مختلف أنحاء العالم الإسلامي . ثم ان الجوامع الكبيرة صارت تنافس المدارس ، حيث خصصت بعض أروقتها لسكن الطلاب كل حسب أقليمه ، ولكل مسجد منها مكتبته ومطبخه وكان الطالب أشبه بالراهب ، حيث يبدأ نهاره عند الفجر ويؤدي الصلاة في أوقاتها . ومن هذه الأروقة أورقة الجامع الأزهر التي ترجع إلى سنة ٣٧٨هـ ــ ٩٨٨م (أحال المؤلف على كتابه عن «الجامع الأزهر» لسنة ١٩٦١ م) .

هذا وقد أنشئت كليات (مدارس) مسجدية مريحة في ايران وفي ماهو الآن باكستان ، ثم هناك جوامع فاس والنجف التي لها ترتيبات مختلفة أشبه ماتكون بأنظمة جامعتي أكسفورد وكمبرج ، فجامع القروين مثلاً كان حتى عهد قريب مدرسة مسجد ، على طراز العصور الوسطى . لقد أسس هذا المسجد في أواسط القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري ، كأحد المعاهد ، إلا أنه مالبث أن صار أبرزها ، وكان طلابه يعيشون في مبان مربعة الشكل تقع خارج الجامع وتسمى (مدرسة) وهي تتألف من طبقتين أو ثلاثة ، وتتسع لحوالي ١٥٠ طالباً كانوا يزودون بالخبز والماء مجاناً ، وكان للطالب غرفة للسكن والمطالعة . كان على الطالب أن يشتري حق السكن فيها ، ولكن الدراسة كانت تتم في الجامع . وقد بقي من هذه المدارس ست حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الموسوعة الإسلامية» لسنة ١٩١٣ ج ٢ ص ٧٦) .

غير أن أحسن مكان لدراسة الجو التعليمي للقرون الوسطى ، هو النجف حيث مشهد

الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) . وبالنظر لمكانته الرفيعة في نفوس المسلمين ، فقد تسابق الحكام وأهل الخير إلى إنشاء الوقفيات وتقديم التبرعات لمساجد النجف وللمساكن الملحقة بها ، فهناك ٢٤ مدرسة مربعة الشكل لسكنى العزاب من الطلبة ، وهي على غرار مدارس فاس ، إلا أن في بعضها تلقى المحاضرات ، ويتلقى بعض الطلاب جراية من مدارسهم ، بينما يحصل آخرون على النفقة من أهلهم أو من ثمرة عملهم ، وتتفاوت كثيراً أعمار هؤلاء الطلاب . ويعيش كل واحد منهم في حجرة بسيطة التأثيث (رجع المؤلف إلى مقال الدكتور فاضل الجمالي في المجلة المسماة Muslim World ـ كانون الثاني ١٩٦٠م) .

أما الأندلس فقد كانت زاخرة بعدد كبير من مؤسسات التعليم التي تعطلت بخروج المسلمين من الأندلس . هذا وقد استمر وجود «المسجد ـ المدرسة» في كثير من البلاد الإسلامية الأخرى ، مثل جامع الزيتونة في تونس الذي أنشىء في سنة ١١٤هـ ـ ٧٣٢م ، وهو لايزال ذا أهمية كبرى في التعليم . وفضلاً عن ذلك ففي تركيا وايران وباكستان ، كان هناك عدد غير قليل من معاهد التعليم ، إذ كان الدين والتعليم متلازمين ، وكانت المساجد المدرسية مؤسسات في غاية الأهمية ، هدفها تفقيه الناس . وكان من مستلزمات مناهجها قراءة القرآن الكريم ودراسة اللغة العربية والفقه .

١١ ـ مناهج التعليم :

يتألف منهج التعليم من دراسة عدد من العلوم ، هي اللغة العربية والنحو والأدب والقراءات والتفسير والحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد والكلام وأصول الدين ، وهي التي تسمى بالعلوم النقلية وعلوم اللسان . كما يتضمن المنهاج دراسة عدد من العلوم العقلية كالرياضيات والفرائض والمنطق ، وهي علوم متممة للفئة الأولى ، فالرياضيات مثلاً لها أهميتها في مواقيت الصلاة وتحديد مواعيد الامساك عن الطعام والافطار في رمضان ، وكذلك في قسمة التركات ، والمنطق له أهمية في مقارعة خصوم الإسلام بالأدلة العقلية . هذا وقد قام عدد من العلماء بدراسة الفلسفة والفلك والهندسة والطب والصيدلة والكيمياء وعلوم الطبيعة . وهذه المواد الأخيرة كانت تدرس أما في منازل العلماء أو في المستشفيات ، وتكون دراستها دراسة خصوصية .

بهذا ينتهي القسم الأول من كتاب «التربية الإسلامية في العصور الوسطى» أما القسم الثاني

الذي يتناول تطور مقررات التعليم ومناهجه ، فيمكن تلخيصه على الوجه الآتي :

١ ـ اللغة العربية :

يبدأ منهج الدراسة عند المسلمين بدراسة اللغة العربية لأنها ضرورية لفهم معاني القرآن الكريم ، وهو هدف التعليم الإسلامي ، ثم لايمكن لأي كان أن يتولى إحدى الوظائف في القضاء أو الادارة أو التعليم مالم يكن عارفاً باللغة العربية . والمعروف أن الخط العربي في عهد الرسول (ﷺ) لم يكن قد اكتمل وأدوات الكتابة كانت قليلة . ولذا لم يكن بالإمكان كتابة القرآن كاملاً في مجموعة واحدة في العهد النبوي ، وكان الاعتماد فيه على الحفظ بالدرجة الأولى ، ولكن الحاجة مالبثت ان انشأت لجمعه مكتوباً ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن السابع (أواسط القرن الأول الهجري) وهنا أخذت اللغة العربية طوراً مهماً في حياتها ، ولكن الخط الذي كتبت به المصاحف ـ وهو الخط الكوفي ـ كان غير كاف لضبط النص القرآني ، لذا انشأت الحاجة إلى تحسين الخط وادخال علامات الاعجام والشكل عليه ، وما إلى ذلك من الاصلاحات ، مما ساعد على نشؤ علم اللغة . والمعروف أن الكوفة والبصرة كانتا أهم مراكز دراسة اللغة ، حيث كان يلتقي أبناء القبائل العربية بأهل البلادالمفتوحة . وقد قضى علماء اللغة الشطر الأكبر من حياتهم في جمع مفردات اللغة من البدو ، وفي دراسة الحياة البدوية ومصطلحاتها ، وغرضهم من ذلك فهم مفردات القرآن الكريم والسنة النبوية . كذلك قاموا بجمع الأشعار والأمثال ، كالذي فعله الأصمعي وأبو عبيدة اللذين ينسب إليهما تصنيف مئات من الكتب على أن أبرز علماء اللغة هو الخليل بن أحمد مصنف أول معجم لغوي عربي «كتاب العين» ، وقد تلاه علماء كثيرون صاروا يصنفون المعاجم في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ، أمثال «فقه اللغة» للثعالبي . وبواسطة هذا والمعاجم تمكن الدارسون من فهم معاني القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما نمت اللغة العربية وصارت نداً للغات العالمية الكبرى كاللغة اللاتينية (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى : «الفهرست» ص ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٢٥ ـ ٢٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٧ والطبرى ، طبعة أوربا ، ج ١ ص٢ ١٧٨ و«فتوح» البلاذري ، طبعة أوربا ، ج ١ ص ٩٢ ـ ٩٣ وج ٢ ص ٨٤ ، ٢٧٠ ـ ٢٧٤ و«مقدمة» ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٢ ص ٢٧٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، وج ٣ ص ٢٨٨ ، وفيليب حتى النسخة الانجليزية ص ١٢٣ ، ٢١٩ ، ٢٤١ ـ ٢٤٢ والموسوعة الإسلامية لسنة

١٩١٣ ص ٣٨١ وابن خلكان، النسخة الانجليزية ، ج ١ ص ٤٩٣ ج ٢ ص ١٢٣ ، وج ٣ ص ٣٨٨ وميز ، النسخة الانجليزية ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧) .

٢ ـ النحو والصرف :

المعروف أن واضع هذا العلم هو أبو الأسود الدؤلي البصري ، إذ لاحظ وقوع اللحن في قراءة القرآن الكريم . أما أقدم مصنف فيه ، فقد وضعه عالم ضرير هو عيسى بن عمر الثقفي المتوفي في سنة ١٥٠هـ ــ ٧٦٧م ، إلا أن أهم كتب النحو هو «كتاب» سيبويه المتوفي سنة ١٧٧هـ ــ ٧٩٣م . وقد برز عدد كبير من علماء النحو أبرزهم الكسائي الكوفي . وقد تناول هؤلاء العلماء جميع جوانب النحو مما هو لازم لفهم معاني القرآن الكريم ولأجل ممارسة الكتابة الصحيحة . وكان المسلمون يدرسون كتب النحو أكثر من مرة ولعدة سنين لضمان الاتقان (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: «الفهرست» ص ٣٩ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٦٤ ــ ٦٥ ، ٨٨ وفيليب حتى ، النسخة الانكليزية ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ، وابن خلكان ، الترجمة الانكليزية ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، ومقدمة ابن خلدون طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٢٧٩ ــ ٢٨٣ . و«طبقات النحويين» للزبيدي ، و«بغية الوعاة» للسيوطي) .

٣ ـ البلاغـة :

وتوخياً للفهم الدقيق لمعاني القرآن الكريم وصحة تفسيره ، أنشأ المسلمون علماً لغوياً هو «علم البلاغة والبيان» ، الذي يتناول المفاضلة بين الكلمات والعبارات في الاستعمال ، وتمييز الجيد منها عن غيره . وينقسم هذا العلم إلى ثلاثة فروع ، هي «المعاني والبيان والبديع» لكل منها جانب خاص به ، وكل هذه الفروع تهم الكتاب والوعاظ والخطباء مثلما تهم المفسرين (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: مقدمة ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٢٩٠ ــ ٢٩١) .

٤ ـ الأدب :

عرف العرب الشعر الجيد في جاهليتهم ، فهو حقاً موسيقى الصحراء ، ولكن النثر عندهم لم يتقدم إلى المستوى الذي كان عليه الشعر ، إلا أنه تطور في ظل الإسلام تطوراً

حميداً ، وكان الجاحظ من أبرز الناثرين . والجدير بالملاحظة أن كُتّاب الدولة هم الذين تولوا مهمة تطوير الكتابة وجعلها فناً رفيعاً ، وفضلاً عن ذلك هناك القصة ، وفي مقدمتها «كليلة ودمنة» لابن المقفع. والقصص التي حفل بها كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني ، ثم مجموعة قصص «ألف ليلة وليلة» . أما كتب الأدب التي عول عليها المثقفون من العرب فمن أبرزها «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، وكتاب «الكامل» للمبرد ، وكتاب «البيان والتبيين» للجاحظ ، وكتاب «النوادر» لأبي علي القالي البغدادي . هذا وقد شهد النثر تطوراً مهماً في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين/الرابع والخامس الهجريين ، إذ ظهرت «المقامة» على يد بديع الزمان الهمذاني ، إلا أنها بلغت ذروتها لدى الحريري البصري . والمقامات قصص تدور كلها حول بطل وهمي ، وتكون الصور فيها بديعة للغاية يستخدم في رسمها التعابير اللغوية باتقان عجيب ، مما يجعلها قطعاً فنية رائعة . ومع ذلك فإن العبقرية لم تبلغ قمتها في النثر ، وإنما كان ميدانها المجلي هو الشعر رغم موقف الإسلام المتحفظ من الشعر ، ولكن كان النبي ﷺ يشجع حسان بن ثابت على نظمه في الذب عن الإسلام مما خفف من كراهية الشعر . وفي أي حال فقد ازدهر الشعر في العصرين الأموي والعباسي لما ناله من تشجيع الخلفاء والحكام ، خاصة وقد كان وسيلة جيدة من وسائل الدعاية السياسية ، فقد كان بمثابة الصحافة في عصرنا الحاضر ، فضلاً عن كونه من وسائل التسلية وطواعيته للغناء . وعلاوة على ذلك ، كان العامة من الناس يستمتعون بالشعر الذي تزخر به القصص التي تتلى عليهم ، ثم ان الشعر كان يحوي أموراً كثيرة مما يهم الناس كالحكمة والزهد بل وحتى المجون ، كما يحوي المدح والهجاء والتهاني والرثاء والفخر والموعظة . وكان الشعراء يتمتعون بمكانة عالية من الاحترام والتقدير . ومن شعراء العصر الأموي البارزين نذكر عمر بن أبي ربيعة والفرزدق وجرير الأخطل ، وكلهم شاعر فحل طويل الباع . ونذكر من شعراء العصر العباسي أبا نواس وأبا العتاهية ، النقيضين ، ومنهم المتنبي الكوفي وأبو العلاء المعري الضرير الذي نظم «الكوميديا الالهية» وذلك في كتابة المسمى «رسالة الغفران» . وإلى جانب العربية ــ اللغة الأولى في الدولة الإسلامية ــ نظم بعض الشعراء بالفارسية ، كالفردوسي والخيام وفريد الدين العطار وجلال الدين الرومي (شيخ الطريقة المولوية) وسعدي وحافظ . والجدير بالذكر أن الحملات الصليبية والغزوات المغولية التي أدت إلى تدمير بعض أقطار العالم الإسلامي ، قد أثرت بدورها على معين الأدب العربي ، فأدت به إلى الجمود

(رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: فيليب حتى ، النسخة الانكليزية ص ٢٥٠ ــ ٢٥٢ ، ص ٤٠١ ــ ٤٠٥ ، مقدمة ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٢٩٦ ، و«الفهرست» ص ٥٣ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ١١٥ ــ ١٤٠ و٣٠٤ وميز ، النسخة الانكليزية ص ٢٤٢ وابن خلكان، الترجمة الانجليزية ، ج ١ ص ٢٩٤، ٣٩٢، ٢٠٢، ١٠٢، ٩٤، ص ٤٣١، وج ٢ ص ٣٧٢، ٤٩٠، ٤٩٣، وج ٣، ٦١٢، ١٢٦ و«الأغاني» طبعة ١٨٦٨، ج ١ ص ٣٠ وج ٧ ص ٣٨، ١٦٩، وج ٩ ص ٢ وج ١٠ ص ٢ وج ١٨ ص ٢).

٥ ــ التفسير :

في الوقت الذي كان فيه علماء المسلمين مشغولين بالدراسات اللغوية ، كانوا في الوقت ذاته يعملون على تطوير علم التفسير الذي لم تكن لوجوده حاجة أيام النبي ﷺ وفي عهد الصحابة (رضي الله عنهم) وأبنائهم ، لأنهم كانوا يفهمون معاني القرآن الكريم حق الفهم ويعرفون ظروف نزوله . ولكن بوفاة النبي ﷺ وصحابته والتابعين ، نشأت الحاجة إلى معرفة معاني القرآن وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ ، وأخذ العلماء يجمعون الأحاديث والأخبار المتعلقة بتلك المعاني والظروف ، وبنتيجة تلك الجهود ظهر علم التفسير الذي كان يعتمد على السند في روايته ، كما هو مشاهد في تفسير الطبري . وقد صنفت كتب كثيرة في التفسير ، منها ماهو مفصل ، ومنها ماهو مختصر . كذلك كان لبعض الطوائف تفاسيرها الخاصة كتلك التي صنفها الفاطميون وهي تعتمد على تأويل المعاني وإخراجها من المراد بها أصلاً لتلائم أغراضهم . ومن التفاسير المشهورة ، تفسير الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٩هـ ــ ١١٤٤م ، وتفسير البيضاوي المتوفى سنة ٦٨٥هـ ــ ١٢٨٦م . هذا وقد كانت حاجة الفقهاء لفهم القرآن الكريم كبيرة جداً ، وذلك من أجل استنباط الأحكام ، ولذا أصبح التفسير جزء مهماً من مناهج الدراسة ، ومثل ذلك بقية العلوم القرآنية الأخرى كعلم القراءات (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص ٣٣ ــ ٣٥ ، ٥٥ ومقدمة ابن خلدون الترجمة الانكليزية ، ج ٢ ص ٣٩١ ــ ٣٩٥ وتفسير الجلالين طبعة سنة ١٩٢٠م ، ج ١ ص ٤٨ وتفسير البيضاوي طبعة سنة ١٨٩٦م ، ج ١ ص ٢٠٦ وتفسير النسفي ، طبعة سنة ١٩٢٥م ، ج ١ ص ٢٩١ .

٦ ــ علم القراءات :

وهو العلم الذي يضبط القراءة الصحيحة لآيات القرآن الكريم ، إذ كانت الكتابة العربية

في الأصل خالية من النقط والحركات ، مما يجعل الحروف متشابهة والقراءات متعددة . ولذلك ظهرت الحاجة إلى وجود علم يضبط القراءة الصحيحة . وقد تعارف العلماء على سبع قراءات معتمدة مقبولة . وقد نشأ إلى جانبها فن التجويد الذي يساعد على أداء التلاوة ، وكلاهما كان ضمن المنهج الدراسي الإسلامي (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى «الفهرست» ص ٢٨ ــ ٣٢ ، ٤٥ ، وفيليب حتي ، النسخة الانكليزية، ص ١٢٣ ، ومقدمة ابن خلدون ، الترجمة الانجليزية ج ٢ ص ٣٨٨).

٧ ــ الحديث :

عندما كان العلماء يبحثون عن تفسير القرآن في أقوال النبي ﷺ وأفعاله ، كانوا في الوقت نفسه ينشئون علم الحديث ، فهو العلم المتعلق بجمع تلك الأقوال والأفعال ، وهو الأساس لعلم الفقه إلى جانب القرآن الكريم ، وكان هذا العلم من أهم مواد المنهج الدراسي . وقد بدأ المسلمون بجمع الحديث في الصدر الأول ، ثم دعت الحاجة إلى تدوينه خشية الضياع أو التحريف بسبب وفاة الحفاظ وتسرب الضعف إلى الذاكرة . وكان علماء الحديث حريصين جداً على تنقية الأحاديث مما قد يكون علق بها من ضعف أو اندس فيها من أحاديث موضوعة ، قبل ادخالها في مجموعاتهم التي صارت تسمى بـ «الصحاح» ، وهذه العملية أي عملية الجمع والتنقية والتدوين هي «علم الحديث». والحديث بحد ذاته ينقسم إلى سند ومتن ، وقد بذل المحدثون جهداً عظيماً في الجمع والغربلة ، فالبخاري مثلاً قضى ١٦ عاماً في الترحال في الأقطار الواقعة بين افغانستان شرقاً ومصر غرباً ، كان يلتقي خلالها بالرواة ، فجمع حوالي نصف مليون حديث ، لم يصح لديه منها سوى ٧٥٠٠ حديث . ومثله في الأهمية ماجمعه مسلم في صحيحه . ولقد كان المحدثون يفحصون رجال السند واحداً واحداً ليتحققوا من صدقهم وعدالتهم قبل الأخذ برواياتهم . ثم تدرس متون الأحاديث لأهميتها بالنسبة للتفسير والفقه ، علاوة على قيمتها العظيمة من الناحية الروحية والأخلاقية ، لاسيما فيما يتعلق بمعاملة الناس على اختلاف طبقاتهم ، والحث على مكارم الأخلاق . وعلم الحديث علم واسع ، ويكفي أن نقول أن دراسة البخاري وحده استغرقت لدى البعض ٢١٠ محاضرات ألقيت خلال سنتين (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى : مقدمة ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٢ ص ٣٩٥ ــ ٤٠٦ وصحيح البخاري ، طبعة مصر ١٩٣٤م ، ج ٩ ص ٦٧ وسنن أبي داود ،

طبعة مصر ١٨٦٣م ، ج ٢ ص ١٨٦ و«المدخل إلى معرفة الإكليل» للنيسابوري ، طبعة أوربا ، ص ١) .

٨ ـ الفقـه :

خلال القرن الأول من ظهور الإسلام ، تمكن المسلمون من فتح البقعة الشاسعة الواقعة بين المحيط الأطلسي وجبال الهمالايا ، وكان عليهم أن يوجدوا نظاماً قضائياً فعالاً لحكم هذه المنطقة قائماً على القرآن والسنة ، وصارت عملية استخراج الأحكام من هذين الأصلين ، هي التي تسمى بعلم «الفقه» الذي كان طلبه هدفاً لأكثر المتعلمين المسلمين . فالتشريع الإسلامي إذن ، هو تشريع سماوي مصدره القرآن والسنة . والمعروف أن النبي ﷺ كان أيام اقامته في المدينة المنورة قائداً للمسلمين وقاضياً بينهم ، لذلك من المهم معرفة الأحكام التي أصدرها وطريقته في تطبيق أحكام القرآن الكريم . وعلى الرغم من وجود قوانين كانت مطبقة ـ قبل الإسلام ـ في الأقاليم المفتوحة ، وبعضها تشريعات متقدمة كالقوانين الرومانية ، فإن تلك القوانين لم تؤثر بحال على اتجاهات التشريع الإسلامي حتى في المناطق التي كانت سائدة فيها من قبل . ومن مزايا القضاء الإسلامي ، انه كان مستقلاً عن الادارة السياسية ، مما مكّن الجهاز القضائي من تطوير الفقه بعيداً عن المؤثرات السياسية . وإلى جانب القضاة كان هناك المفتون الذين كانوا يصدرون الفتاوى في الأمور التي يسألون عنها وفقاً لأحكام الدين . ثم ان العلماء المسلمين أوجدوا الاجتهاد لغرض استنباط الأحكام فيما يتعلق بالأمور التي لم يرد لها حكم في القرآن أو السنة . وحيث أن الصحابة (رضي الله عنهم) وأبناءهم قد توزعوا بين الأقطار الإسلامية ، فإن مدارس فكرية قد نشأت في عدد من تلك الأقطار ، ومن أهمها مدارس الكوفة والشام ، فضلاً عن مدارس الشيعة . ومجموع آراء تلك المدارس يكوّن الشريعة الإسلامية التي استطاعت أن تغطي جميع احتياجات الأمة ، وكانت مانعاً يوقف طغيان الحكام . وقد تضمنت الشريعة أحكاماً تعالج جميع الحقوق والواجبات سواء أكانت تجاه الخالق سبحانه أو تجاه العباد . وأشهر المدارس الفقهية هي المذاهب السنية الأربعة ، ثم هناك المذاهب الشيعية (الجعفري والزيدي والاسماعيلي)(٥) . أما الخلاف بين المجموعتين فليس في العبادات والفروع بقدر ماهو خلاف حول الامامة بالدرجة الأولى . وفي القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري ، تقررت قواعد هذه المذاهب ، وتوقف نشوء مذاهب

جديدة ، لاسيما وقد قرر العلماء قفل باب الاجتهاد ، وصار على طلبة العلم أن يدرسوا كتب تلك المذاهب ، (مثل «كتاب الأم» للإمام الشافعي) وهي كتب مبوبة وفقاً لأبواب الفقه المعروفة ، وهي الطريقة التي أخذ بها الإمام البخاري والإمام مسلم في ترتيب الحديث النبوي . وحيث إن تلك الكتب كبيرة الحجم كثيرة التفاصيل ، فلم يكن بوسع الطالب الإحاطة بها كلها ، ولذلك جرى العرف على أن يختص الطالب بدراسة كتب مذهب واحد فقط . وعلى أي حال فقد كان الفقه من أهم مواد الدراسة في المعاهد الإسلامية (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: «وفيات الأعيان» الترجمة الانكليزية، ج ٢ ص ٢٢٩، ٥٤٥، ٥٦٩ و ج ٣ ص ٥٥٥ ـ ٥٦٥ و«الفهرست» ص ٤٤، ٤٥، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٧ وميز ، النسخة الانكليزية ص ٢١١ ومقدمة ابن خلدون، طبعة أوربا ، ج ٢ ص ٤٠٠، ج ٣ ص ١، ٧، وأبو زهرة «الإمام الشافعي» ص ١٤، ٩٠، ١٤٣ وياقوت «معجم الأدباء» طبعة لوزاك ، ج ٤ ص ٣٦٧ ـ ٣٩٨) .

٩ ـ علم الكلام والتصوف :

من المعروف أن المسلمين كانوا في عصر الرسول ﷺ والصحابة كتلة واحدة ، ولم تظهر الخلافات بينهم إلا بعد حين ، ومنها الخلافات التي نشأت بصدد الخلافة ، وقد أدت إلى ظهور فرق الخوارج والشيعة والمرجئة ، وتطورت الأمور ، فظهرت فئات القدرية والجبرية ، وقد شجع الأمويون على متابعة الجبرية لأنها كانت تلائم حكمهم ، إذ بإمكانهم القول بأن مايقع للأمة من سوء ليس مرده سوء الادارة ، وإنما هو أمر مقدّر من الله ، والأمويون في الوقت نفسه لم يشجعوا الخلافات الفكرية حتى إذا انتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي ، ظهرت فئة من المسلمين تقول بتحكيم العقل في أمور الدين ، وهم المعتزلة الذين ظهروا في البصرة ، ثم تحولوا إلى بغداد ، إلا أنهم لم يجدوا التأييد من الرشيد ووجدوه فيمن خلفه في حكم المسلمين ، ولاسيما لدى المأمون الذي شجع ترجمة الكتب الفلسفية ودراستها ، وربما تأثرت أفكار المعتزلة بتلك الكتب أيضاً ، فبنوا مناقشاتهم على المنطق اليوناني ، وعلى التحليل الفلسفي ، مما اضطر علماء السنة إلى التصدي لهم باستخدام أساليب مماثلة . وهذا التصدي القائم على العقل سُمي «علم الكلام» لاسيما بعد أن أخذ المأمون بآراء المعتزلة ، وفي مقدمتها مسألة خلق القرآن التي فرض على العلماء قبولها ، إذ كانوا يمتحنون في ذلك ، فسميت عملية الامتحان بـ «المحنة» التي اصطلى بنارها عدد من العلماء الكبار كالإمام أحمد بن حنبل .

واستمرت المحنة قائمة في عهد المعتصم والواثق إلى أن أبطلها المتوكل . ولكن بعض العلماء ـ وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري المتوفي سنة ٣٢٥هـ ـ ٩٣٦م ـ رأوا ضرورة مناقشة تلك الآراء بالحجة والدليل المنطقي وهي الحجج التي يتوسل بها المعتزلة أنفسهم ، وبذلك أسس الإمام الأشعري «علم الكلام» ، فقد كان معتزلياً هو نفسه ثم تخلى عن الاعتزال . وصار هذا العلم يُدرس من قبل المسلمين بعد أن كان العلماء يحرمونه في السابق ، لأنه يستلزم الاتصال بالمعتزلة ومناقشتهم . ولكن الأشعري جعله علماً مقبولاً بين العلوم الإسلامية ، ذلك لأنه باستعمال العقل والمنطق ، لم يهدف إلى صنع آراء جديدة ، إنما هو يستخدم العقل والمنطق في سبيل الدفاع عن العقيدة الإسلامية نفسها ومكافحة البدع . ولذا يمكن القول بأن الأشعري أمكنه التوصل إلى طريقة وسط بين الآراء المعتزلية المتطرفة من جهة ، وبين أهل الحديث من جهة أخرى ، ولاسيما فيما يتعلق بالصفات والعدل الالهي ومسألة خلق القرآن . وقد اتبع أسلوب الأشاعرة علماء آخرون بينهم المتكلم المصري الطحاوي ، وأبو منصور الماتريدي من أهل سمرقند ، ومن بعد هؤلاء بقرون ، اتبع هذا الأسلوب ابن تومرت في المغرب والأندلس . هذا ومن الجدير بالذكر أن نظام الملك وزير السلاجقة ، وصلاح الدين الأيوبي قد شجعا تدريس علم الكلام الأشعري في المدارس التي أنشأها في بعض بلدان العالم الإسلامي ، مما يسّر للأشعرية سرعة الانتشار ، إذ صارت الأشعرية هي الأساس لمناهج التدريس في تلك المدارس (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: فيليب حتى ، النسخة الانجليزية ، ص ١٧٩ ـ ١٨٢ ومقدمة ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٣ ص ٢٧ ـ ٤٣ و«وفيات الأعيان» الترجمة الانجليزية ، ج ١ ص ٥١ ـ ٥٢ وج ٢ ص ٢٢٧ ، ٦٦٩ ـ ٦٧١ و«الفهرست» ص ٢٠٧ والموسوعة الإسلامية ، ج ٢ ص ٦٧٠) .

وإلى جانب علم الكلام ، ولظروف مشابهة لظروف نشأته ، نشأ التصوف الذي يمكن أن يعد موضوعه مكملاً لعلم الكلام ، وقد كان أيضاً ضمن مواد التدريس . في الواقع كان كثير من الزهاد خلال القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري يعملون على الابتعاد عن شرور الدنيا ويعيشون عيشة التقشف دون أن يكون له اتجاه فكري معين ، ولكن الأمر تطور بمرور السنين وصار للزهاد آراء خاصة بهم وتأويلات معينة لبعض الأحكام الدينية ، وأوجدوا الأحوال التي يتدرج فيها الصوفي روحياً حتى يبلغ الغاية في القرب من الله ، حسب اعتقادهم . وكثير من هؤلاء المتصوفة أناس اعتياديون ، ولكن هناك منهم من له آراء غريبة تكلف في بعض الأحيان

دفعثمن غال هو الحياة كالذي حصل للحلاج . ومن الصوفية البارزين الجنيد البغدادي الذي جعل من الزهد نظاماً فكرياً ، إلا أن أبرز المتصوفة ، على الاطلاق ، هو الإمام الغزالي الذي روج المفاهيم الصوفية بشكل جعلها مقبولة لدى المسلمين بعد أن كان سابقوه من المتصوفة يخشون نقمة العلماء . فقد استطاع الغزالي أن ينزل بعلم الكلام من عليائه ويطعمه بلمسات من الشعر والزهد ، فجعله سائغاً لدى العامة . والحق أن حياة الغزالي يمكن وصفها بأنها كانت ملحمة للتجارب الدينية ، إذ استطاع في مقتبل عمره أن يتقن العلوم التي درسها من لغة وفقه وكلام ، بل وحتى الفلسفة ، ولكنه لم يقتنع بما وجده عند معاصريه من العلماء ، خصوصاً وقد تمزقوا طوائف شتى ومذاهب متخاصمة ، فعمد إلى البحث عن الحق عن طريق التجربة الشخصية ، وقد مر بأدوار حرجة في حياته رغم كونه مقرباً من نظام الملك وزير السلاجقة ، الذي عينه شيخاً للمدرسة النظامية في بغداد . وقد صنف الغزالي العديد من الكتب في مختلف المواضيع ، وكلها تدل على طول باعه فيها ، إلا أنه لم يجد الطمأنينة التي كان ينشدها إلا بعد أن اعتزل الناس وأقام في قريته طوس حيث توفي في سنة ٥٠٥هـ ــ ١١١١م .
هذا وقد طور الغزالي تعاليم الأشعري في الكلام ، أما بالنسبة للعامة من الناس ، فإنه أوضح لهم أهمية العيش عيشة الفضيلة والقيام بالأعمال الصالحة ، إذ كان صعباً عليهم أن يتفهموا تعقيدات تعاليم الأشعرية وحججها وأدلتها . أما أبرز مؤلفاته فهو «احياء علوم الدين» الذي تناول فيه وصف عيوب الناس ونقائصهم، ووضع لهم فيه النصائح البناءة الكفيلة ، باصلاح أوضاعهم ، مؤكداً على أهمية الروح ورخص قيمة الجسد ، فكان يدعو إلى محاسن الأخلاق وحسن المعاملة مع المزيد من طلب العلم . وعلى أي حال فإن تعاليم الغزالي بقيت إلى جانب تعاليم الأشعري ، هي الأساس لدراسات علم الكلام (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى: «الفهرست» ص ١٨٦ و«وفيات الأعيان» الترجمة الانكليزية ، ج ١ ص ٨٠ ، ٣٣٨،وج٢ ص ١٢٠ ، ٦٢١) .

ولكن الحملات الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي ، وما أعقب ذلك من فوضى ودمار ، مما أثر على جمود الآداب العربية بصورة عامة ، كذلك أدت تلك الأوضاع إلى جمود علم الكلام وغيره من العلوم ، ولم يكتب لعلوم الدين الانتعاش بعد ذلك ، حيث اكتفى العلماء ــ بعد الغزالي ــ بكتابة الشروح والمختصرات[٦] . هذا والجدير بالذكر أن علم

الكلام بالنظر لتشابه موضوعاته بموضوعات الفلسفة ، فإنه من العسير تحديد نهاية نطاق علم الكلام وتعيين بداية الفلسفة ، إلا أن أساس العلم الأول هو القرآن الكريم ، بينما أساس العلم الثاني هو آراء حكماء اليونان . ولهذا فقد كان علم الكلام ضمن مواد المنهج الدراسي العام ، بينما بقيت الفلسفة تدرس بصورة خصوصية في المنازل غالباً ، على الرغم من ادخال المنطق ضمن مواد المنهج الدراسي المذكور ، أما الموسيقى فلم تحظ بالدخول في مواد ذلك المنهج ، بينما أعطيت الرياضيات أهمية ثانوية ، رغم لزومها لكثير من الأمور الشرعية كقسمة المواريث وتحديد مواقيت الصلاة وغيرها . ومع ذلك فإن الكثير من علماء المسلمين كانوا يتدارسون الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية ، ولكن بصورة خصوصية . أما الطب والصيدلة فقد كانا يدرسان في المستشفيات ، ولم يكونا ضمن المنهج العام الذي تركز على الدراسات الدينية والفقهية واللغوية (رجع المؤلف في هذه الفقرة إلى : مقدمة ابن خلدون ، طبعة أوربا ، ج ٢ ص ٣٥٢ ــ ٣٦١) .

وفي ختام كتابه عن التربية الإسلامية ، كتب بايارد دوج خلاصة موجزة بصفحتين أشار فيها إلى ان التعليم في العصور الحديثة الذي صار يختلف عما كان عليه الحال في العصور الوسطى ، إذ اقتصر التعليم الديني في البلاد الإسلامية على مراكز خاصة تهتم بالتعليم الديني بالدرجة الأولى ، بينما اختصت مؤسسات أخرى بالتعليم الدنيوي .

وهكذا لخص لنا المؤلف في أوجز عبارة تاريخ التربية الإسلامية وعناصرها الأساسية في كتاب لا تتجاوز صفحاته ١٢٠ صفحة ، ولكنه جاء شاملاً لجوهر الموضوع . ومن هنا جاءت أهمية الكتاب والدافع إلى تلخيصه ، والله الموفق] .



الهوامش :

(١) مما أذكره أيام دراستي في الجامعة المذكورة أن دوج كان يتقاضى راتباً اسمياً قدرة دولار واحد عن رئاسته للجامعة ، فيشتري به كتاباً يهديه الى مكتبتها في كل شهر!! (الصقار) .

(٢) ورد هذا الحديث في «احياء علوم الدين» للغزالي طبعة دار الشعب بمصر ، ج ١ ص ١٠ (الصقار) .

(٣) لاشك أن الإسلام انتشر الى الشرق من أفغانستان ، في بلاد ماوراء النهر التي كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية . (الصقار) .

(٤) سبق للمؤلف أن ذكر عددها بأنه ١١٥ مدرسة (الصقار) .

(٥) فات على المؤلف ذكر المذهب الاباضي (الصقار) .

(٦) من الواضح أن المؤلف يقصد بمقاله الأوضاع التي سبقت نهضة العلوم الإسلامية في العصر الحديث (الصقار) .